العرب وتركيا الحديثة: قرن المفاهيم المتغيرة

بشير نافع *

ملخص

عاش العرب والأتراك في كنف الدولة العثمانية لقرون عديدة، واصطبغوا بالثقافة العثمانية السائدة في ذلك الوقت، وتأثروا بنمط الحياة الدينية فيها، و قد رسم تأسيس الجمهورية التركية الحديثة والعديد من الدول العربية في العشرينيات من القرن الماضي خريطة سياسية جديدة في المنطقة، ومن ثم أدى ذلك إلى تنامي الوعي العربي تجاه تركيا الحديثة، وتوضح هذه المقالة الدور الذي لعبته عوامل أربعة رئيسة في تكوين صورة تركيا في أعين العرب، وهي: تأويل الماضي العثماني، وإرث العهد الكمالي، وصراعات وتحالفات فترة الحرب الباردة، وصعود نجم حزب العدالة والتنمية، كما تعرض أيضا للتحديات التي يواجهها العرب والأتراك الآن في سبيل تعزيز العلاقات بينهما كأمم، وليس كرعايا من رعايا الإمبراطورية العثمانية.

لا يوجد شعبان في الشرق الأوسط يتداخل تاريخهما معًا مثل الشعبين العربي والتركي، فقد عاشا كلاهما في كنف الدولة العثمانية لقرون عديدة، واصطبغا بالثقافة العثمانية والحياة العثمانية المتدينة التي أثرت في كل الشعوب الإسلامية داخل الإمبراطورية العثمانية، كما عاش الشعبان في ظل أنظمة حكم عثمانية؛ حيث تم تطبيق نفس القوانين في مدينة أضنا التركية وفي القاهرة في مصر، وتنقل العلماء والموظفون والجنود والتجار بحرية بين مدن الإمبراطورية، ولم يكن للقومية أو العنصرية مكان، لكن في منتصف القرن التاسع عشر ومع نشأة الدولة التركية الحديثة بدأ هذا الشعور يتغير؛ حيث إن التطور في وسائل الاتصال ونظام التجنيد والتعليم الحديث وتصاعد التهديدات والتنافس الأجنبي للسيطرة والتأثير على الدولة الحديثة، كل هذا لعب دورا في تطور المنطقة العثمانية المشتركة وكل ما بها من تناقضات مثل عدم إحساس الأتراك والعرب بأنهم أمة واحدة، ومن ثم كان الشعور العثماني من ناحية، و الشعور الجديد

* بشير موسى نافع، أستاذ الدراسات الإسلامية في كلية بيركبك بجامعة لندن يعتبر من أهم المفكرين في جامعة لندن، وباحث في مركز الجزيرة للدراسات bmnafi@yahoo.co.uk

رؤية تركية ٥١-٦٩
١/٢٠١٢

بالهوية القومية من ناحية أخرى، وكل منهما كان يجذب الإمبراطورية العثمانية في اتجاه مختلف.

وقد كان العقد الأخير من عهد الدولة العثمانية هو الأكثر توترًا في تاريخ العلاقات بين العرب والأتراك، فقد لعبت ضغوط الدولة الحديثة والسياسات المركزية والقومية دورًا كبيرا في إبراز المخاوف على مستقبل الإمبراطورية العثمانية، ومما لاشك فيه أن التقسيم الأخير للإمبراطورية كان نتيجة الهزيمة في الحرب العالمية الأولى، وقد أسفر تأسيس الجمهورية التركية الحديثة والعديد من الدول العربية في فترة العشرينيات عن رسم خريطة سياسة جديدة للمنطقة، الأمر الذي أدى إلى تنامي وعي المجتمعات العربية بالدولة التركية، فمما لاشك فيه أن شعور العرب لم يكن مستقرًا أبدًا تجاه الجمهورية التركية؛ حيث كان مرتبطا دائمًا بتغير الأوضاع التاريخية، كما أن بعض القوى أسهمت في صياغة صورة تركيا في أعين العرب، منها تفسير وتأويل الماضي العثماني والإرث الأتاتوركي والصراعات والتحالفات إبان الحرب الباردة، وأخيرًا صعود نجم حزب العدالة والتنمية.

كان العقد الأخير من عهد الدولة العثمانية هو الأكثر توترًا في تاريخ العلاقات بين العرب والأتراك.

إعادة النظر في الماضي العثماني

ظهرت القومية العربية أولًا في سوريا الكبرى خلال فترة مابين الحربين العالميتين، وعلى الرغم من حداثتها، فإنها سرعان ما أصبحت الهوية الشرعية لكل الشعوب العربية سواء الدول المستقلة أو التي ما زالت تناضل ضد السيطرة الإمبريالية، وظهرت اللهجة القومية العربية التي أدانت الماضي العثماني، والذي يبدو من خلاله أن كلمات مثل: الأتراك والعثمانيين هي مجرد ترادفات لفظية، ولعب كل من المشروع التاريخي لجمعية الاتحاد والترقي و الثورة العربية الكبرى في عام ١٩١٦م التي قام بها الشريف حسين حاكم مكة دورا محوريا في فكرة إدانة التاريخ العثماني، وعلى الرغم من أن ردود الأفعال العربية تجاه الثورة لم تكن واضحة، وكانت مختلطة إلى حد ما؛ فإن أعمال مثل "الصحوة العربية" لجورج أنطونيوس، وأعمال ساطع الحصري عن القومية العربية، وبعض الأعمال الأكاديمية وشبه الأكاديمية ذات الموضوعات المشابهة[1] أسهمت في خلق وعي جديد عن الثورة وإسهاماتها في تكوين القومية العربية، وطبقًا لهذه الرؤية التاريخية فإن جذور القومية العربية تعود إلى القرن التاسع عشر، وبهذا تكون الثورة العربية نتيجة منطقية لسياسات التتريك والقمع التي اتبعها حزب الاتحاد والترقي، لقد تطلع العرب لنيل استقلالهم عن العبء الثقيل الذي يمثله الاحتلال العثماني

الطويل، ومع إعلان الثورة العربية الكبرى كانت حركة الشريف حسين في مكة تبدو وكأنها عصيان متكتل وقوة حقيقية راسخة تتفجر من الأمة العربية الحديثة الناهضة.

وقد اعتُبر ظهور أعمال لزين نور الدين زين مثل: نشوء القومية العربية Origins Of Arab Nationalism، ثم صدورها فيما بعد بنسختها العربية؛ أول تحد للقومية العربية السائدة[٢]، ومع أن هناك علاقة بين سياسات حزب الاتحاد والترقي وتطور الشعور بالعروبة والقومية العربية؛ فإن زين ناقش افتراضية وجود صحوة قومية عربية ليبرالية قبل الفترة الدستورية العثمانية الثانية، وأشار زين أيضًا فى تقييمه لردود الأفعال على الثورة في سوريا الكبرى؛ إلى الانقسامات داخل صفوف النخب العربية، وبين النخب والناس العاديين، وخلال العقود القليلة التالية وجد النقاش الأكاديمي حول القومية العربية، خصوصًا في الجامعات الأمريكية والبريطانية، طريقه إلى الدوائر الأكاديمية العربية، الأمر الذي أسهم في طرح أسئلة جديدة وتطوير مجالات بحثية جديدة[٣]، ومن ثم ظهرت رؤية أكثر وضوحًا للعهد العثماني المتأخر.

إنه من الممكن فهم القومية العربية مثل نظيرتها التركية في ضوء السياسات العثمانية التحديثية المركزية، في حين أنه يتم إعادة النظر إلى (التمرد) الثورة العربية ليس فقط من حيث دوافع الشريفين ولكن أيضًا من حيث غياب المقاومة الشعبية ضد الحكم العثماني في أغلب المدن العربية في أثناء سنوات الحرب، فعلى الرغم من أن كون الاستقلال هو المطلب الرئيس للقادة العرب وأعضاء في الجيش والحكومة العثمانية، فإن الأغلبية العظمى من طبقة المثقفين العرب بالإضافة إلى أصحاب الميول العربية القوية مثل: (ياسين الهاشمي ، وكرد على، وشكيب أرسلان، وناجي السويدى) قد قاموا بواجباتهم على أكمل وجه كعثمانيين مخلصين حتى الهزيمة الأخيرة للدولة العثمانية، فكان العرب يشكلون ثلث الجيش العثماني الذي تكون من ثلاثين ألف جندي وقت الحرب[٤]، كما شكل العرب ثلثي جنود الفرقة التاسعة عشرة، التي قادها مصطفى كمال أتاتورك في أثناء الدفاع المظفر عن شبة جزيرة غاليوبولى، وقد تصاعد الشعور العربي خلال العقد الأول والثاني من القرن العشرين، إلا أن شريحة صغيرة نسبيًا من العرب في العراق وسوريا والحجاز كانت قد آمنت بتأييد الهوية والحقوق العربية، وطالبت بالقضاء على الإمبراطورية العثمانية، والمثير أنه كما أن نسخة التاريخ القومي لم تقتصر فقط على المثقفين أو على الأوساط العلمية؛ فإن المناقشات المتزايدة عن العهد العثماني المتأخر قد تركت أثرا مشابها على المجتمع والثقافة الشعبية.

ويجري الآن إعادة النظر إلى تاريخ العصر العثماني بأكمله، ففي معظم سنوات القرن

العشرين، أظهرت القوى العربية الإسلامية مثل الإخوان المسلمين والحزب الإسلامي الليبرالي- على النقيض من الأوساط القومية العربية- تعاطفا كبيرا مع ذكرى الخلافة العثمانية، على الرغم من أن هذا التعاطف يعكس حنينا دينيا أكثر من كونه فهما صحيحا للتاريخ، ويتجلى الاهتمام المتزايد بالتاريخ العثماني، منذ السبعينيات من القرن العشرين، من خلال تنظيم المؤتمرات العلمية، وتأسيس مراكز بحثية متخصصة، وكذلك من حيث زيادة أعداد الطلاب الباحثين في تاريخ العهد العثماني، كل هذا غيّر تمامًا نظرة العرب تجاه ماضيهم العثماني، وقد تم إعداد ونشر عدد هائل من المخطوطات التاريخية العثمانية، وتنامى الوعي بالمجتمع العربي العثماني، كما ازداد الاهتمام بالتاريخ الفكري العثماني، الذي أسهم فيه العلماء العرب بإسهامات كبيرة، علاوة علي ذلك، فإن العهد العثماني وحجم قوته التركية، لم يعد يبدو كعامل شكلي في تكوين المجتمع والثقافة العربية، بل إنه لعب دورا محوريا في تاريخ العرب والتاريخ الإسلامي، حتى إن المؤرخين المصريين الأقباط أمثال: نيللي حنا، وبيتر جران، لم يكونوا متحيزين لفكرة التنكر للماضي العثماني[٥].

الإرث الكمالي

لقد كان تأسيس الجمهورية التركية موضع خلاف وجدل في العلاقات التركية العربية الحديثة، وعلى النقيض من الفكرة العامة؛ فإن هزيمة الجيش العثماني في سوريا وانسحابه إلى شمال حلب ثم التوقيع المدروس على هدنة، لم يُنه العلاقات العربية العثمانية، فأغلب الضباط العرب العثمانيين الذين التحقوا بحكومة (الفيصل) في دمشق، قد حافظوا على ولائهم للدولة العثمانية حتى آخر لحظة في الحرب، والقليل فقط الذين تم تجنيدهم كانوا من الأسرى البريطانيين في المعسكرات الحربية، على يد جواسيس الشريف[٦]، وبمجرد انفجار المقاومة التركية في الأناضول، قام الضباط العرب في دمشق بالاتصال برفقائهم في أنقرة، وفى إطار الوضع العام للثورة العربية في سوريا والعراق والدولة العثمانية التي استجمعت قواها، كان يتم استنزاف الفرق الفرنسية في كيليكيا باستمرار، وتم قطع خطوط إمداداتهم القادمة من وادي البقاع، وقد اشتعلت ثورة العراق عام ١٩٢٠م بسبب هجمات الضباط العرب من سوريا على الموصل وتل عفر[٧].

وقد حصل مصطفى كمال وقوات المقاومة التركية على الدعم من فلسطين والعراق، مما خلق شعورا بالقلق والترقب لدى سلطات الاحتلال البريطاني[٨]، وعند انتصار الأتراك في حرب الاستقلال، قام الشاعر العربي المصري الشهير أحمد شوقي، بتأليف إحدى أشهر قصائده، ووصف فيها مصطفى كمال بأنه (خالد الأتراك) فقد شبهه بـ (خالد بن الوليد) أول قائد عسكري

مسلم، ورفيق الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعد فترة وجيزة، وتحديدا عند قرار الحكومة التركية بإلغاء الخلافة، كتب شوقي قصيدته: (سقوط الخلافة) وهي قصيدة أخرى خالدة في الشعر العربي في القرن العشرين، وتعبر عن خيبة الأمل الكبيرة في النظام الكمالي الأتاتوركي، كما كشفت القصيدة عن مشاعر الحزن العميق حيث صورت العالم الإسلامي وهو يهتز من جذوره.

وإلى حد كبير، لم تستطع أية منطقة عربية أن تتجاهل أصداء إلغاء الخلافة، وقد كان رشيد رضا أكثر الشخصيات المؤثرة في الحركات الإصلاحية العربية والإسلامية في فترة ما بين الحربين العالميتين، حيث نشر سلسلة من المقالات ظهرت أولا في المنار تدافع عن الخلافة، ونادى بالإبقاء عليها في مؤسسة معدلة[٩]، وفور انتقال الخليفة العثماني من إسطنبول، أعلن الشريف حسين رغبته في تولي منصب الخلافة، وذلك وقتما كان في زيارة إلى ابنه عبد الله في الأردن، ومع ذلك كان أئمة المساجد في المدن الفلسطينية، ممن يذكرون اسم الشريف حسين في صلاة الجمعة يتعرضون لهجوم شديد من المصلين ويتلقون التهديدات بالقتل[١٠]، وقد تم عقد مؤتمرين إسلاميين؛ أحدهما في مكة عام ١٩٢٤م، والآخر في القاهرة عام ١٩٢٦م، وقد فشلا كل منهما في التوصل إلى اتفاق حول كيفية اختيار خليفة جديد، أو اختيار أنسب الشخصيات لشغل ذلك المنصب الرفيع، فقد كانت معظم الدول العربية حينئذ تحت سيطرة الاستعمار، وعند السقوط المفاجئ للخلافة العثمانية لم يتبق سوى القليل جدًّا ليربط العرب بتركيا الحديثة، ومن ناحية أخرى، لم تكن الجمهورية التركية أيضًا ترغب في إحياء الروابط القديمة مع العالم العربي.

> إن هناك شعورا داخليا وكأنه أحد أسرار الطبيعة، وهو أن مصير مشروع حزب العدالة والتنمية متعلق بطريقة ما بمصير خلافات العرب الداخلية حول وضع الإسلام في العالم

لقد كان الشعور العام بين العرب في فترة ما بين الحربين العالميتين هو أن الأتراك لم يتخلوا عن الخلافة فقط، ولكن تخلفوا عن مسئولياتهم تجاه العقيدة أيضًا، ومما لا شك فيه أن تركيا لم تغب بشكل كامل عن تفكير العرب حتى في تلك الأوقات العصيبة من تاريخ الجمهورية، فقد كان للجمهورية أيضًا معجبوها، وكان أهم حدث في جدال الخلافة، هو صدور كتاب القاضي الأزهري علي عبد الرازق في القاهرة تحت عنوان: "الإسلام وأصول الحكم"[١١]، فقد تحدث الشيخ علي عبد الرازق عن واحدة من أهم نقاط الخلاف في الثقافة العربية الإسلامية في القرن

العشرين، حيث أنكر الشيخ عبد الرازق أن الخلافة كانت هيئة دينية، ودلل على ذلك بأن المسلمين كانوا أحرارا في تقرير شكل حكومتهم طبقًا لتغيرات العصر وظروفه، وقد واجه انتقادا ومعارضة كبيرة، واتُّهم بالترويج لأفكار معادية للإسلام، وأنه من نتاج المستشرقين الغربيين، والحقيقة أن الأفكار الرئيسة المطروحة في كتاب "الإسلام وأصول الحكم" كانت مستمدة من وثيقة أصدرتها الجمعية الوطنية الكبرى في أنقرة للدفاع عما قامت به تركيا من إلغاء للخلافة[١٢].

والذي يثير الدهشة؛ هو إعجاب النخبة العربية بمصطفى كمال أتاتورك، فمع تزايد الإيمان بقوة الدولة الجديدة، بين مفكري القومية العربية الشابة والقادة العسكريين؛ أصبحت الجمهورية التركية تبدو وكأنها قصة نجاح، حيث نالت القيادة القومية المتحدة استقلالها، واستخدمت كل مقومات الدولة لفرض النظام وتحقيق الاستقرار وفرض برنامج للتحديث، ويظهر التأثير التركي بوضوح في إصدار بيان تأسيس عصبة العمل القومي عام ١٩٣٣م، تلك التي كانت إحدى أهم المنظمات الرائدة في أيديولوجية القومية العربية، وقد أكدت المنظمة دور الدولة في تقرير مستقبل القومية العربية، وذلك من خلال تأثيرها القوى في تطوير الحوار العربي في بلاد الشام والعراق، وقد لاقى الدور الذي قام به مصطفى كمال أتاتورك في تأسيس الجمهورية التركية على أنقاض الدولة العثمانية ووضع قواعد أنظمة وآليات دولته استحسان القادة العرب في فترة ما بين الحربين العالميتين[١٣]، وقد نظر كافة القادة العرب الذين اهتموا بالسياسة إلى الدولة على أنها التجسيد الصحيح للإرادة القومية، ونظروا للجيش على أنه منقذ الأمة.

فترة الحرب الباردة؛ التحالفات والصراعات

إن إحدى السمات الرئيسة في المراحل الأولى من الحرب الباردة هي تبنى الغرب نهجا معاديا للشيوعية، وذلك بإقامة مناطق متعددة من التحالفات بهدف سد الطرق أمام أية إمكانية لنشر الشيوعية أو النفوذ السوفيتى، وفي نفس الوقت شكل ظهور ضباط الجيش العرب في مصر، وتبنيهم للقومية العربية، ومعاداتهم للإمبريالية تحديا هائلا للأنظمة الملكية التقليدية في الأردن والعراق والمملكة العربية السعودية، فعبد الناصر الذي لم يكن في بادئ الأمر مؤيدا للفكر السوفيتي، أدرك جيدًا أن أولى أولويات العرب هي محو آثار الحكم الاستعماري، لتحاشي أن يكونوا طرفا في صراع القوى الغربية، وتأكيدا على مكانة مصر في العالم العربي رفض عبد الناصر الفكرة التي تقول بأن انسحاب الدول الاستعمارية من دول الشرق الأوسط بعد استقلالها يخلق فجوة استراتيجية، ورأى أن التحالفات الغربية الموجهة تعتبر شكلا جديدا من أشكال الإمبريالية.

في عامي ١٩٥٥م، و١٩٥٦م أجبرت الاحتجاجات الجماهيرية الهائلة الملك حسين ملك الأردن على التراجع عن قراره الأول بالانضمام إلى حلف بغداد، والموافقة على تعيين حكومة ذات ميول قومية يسارية، وفى عام ١٩٥٦م حقق عبد الناصر انتصارا كبيرا في حرب السويس، والذي أدت نتائجه إلى زعزعة الوضع البريطاني في الشرق الأوسط، وكانت مصر قبل أزمة السويس وبعدها تدعم الحركة القومية التحررية في الجزائر ضد الحكم الاستعماري الفرنسي، وفى عام ١٩٥٨م تم إعلان الوحدة بين مصر وسوريا، وقامت مجموعة من ضباط الجيش القومي بإسقاط النظام الموالى لبريطانيا في العراق[١٤]، وبالطبع فضلت تركيا أن تكون موالية للسياسة الغربية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية؛ حيث أصبحت تركيا عضوا في حلف شمال الأطلنطي (الناتو)، وأيضا أصبحت جزءا من التحالفات الموالية للغرب في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى كونها أول دولة إسلامية تعترف بإسرائيل وتؤسس علاقات دبلوماسية معها، وليس غريبا أن معظم الشعوب في العالم العربي كانت تنظر إلى تركيا في عهد مندريس بنظرة شك وريبة، فمنذ أن سارت الدول العربية وراء دعوة عبد الناصر للوحدة والاستقلال والتنمية؛ أصبحت تركيا تبدو كأداة استعمارية في الشرق الأوسط، وقوة لاستمرار الوضع الراهن في المنطقة[١٦].

ولقد أبدى القليل من العرب، وليس مجرد الإسلاميين العرب، اهتماما كبيرا بالبرنامج الإصلاحي لرئيس الوزراء التركي مندريس وحكومته في عام١٩٦٠م، أو بمحاولته للإصلاح بين المجتمع والنظام الجمهوري، وبعد نهاية مندريس المأساوية، وقيام الجيش التركي بإعدامه عام١٩٦٠م، أصبح مندريس محل نقاش في الأوساط العربية، وخاصة بين أصحاب النزعات السلطوية للدولة القومية العربية، بتوجهاتها العلمانية.

ومع نكسة العرب في حرب ١٩٦٧م، ومشاعر التضامن التي أظهرها الشعب التركي[١٧]، بدأ الوعي العربي بالتاريخ المشترك مع الأتراك ينمو ويتزايد، فقد أدت هزيمة ١٩٦٧م إلى ظهور صور جديدة من السياسة والثقافة العربية، تميزت بظهور حركة المقاومة الفلسطينية من ناحية، والحركة الإسلامية السياسية من ناحية أخرى، فكانت المقاومة الفلسطينية تبدو لليساريين الأتراك- كما تبدو لليساريين في العالم كله- على أنها قوة تقدمية هائلة في سياسات العالم والشرق الأوسط، ومن ثم ظهرت الشخصيات اليسارية التركية في المكاتب الفلسطينية في بيروت، وفي قواعد الجماعات المسلحة في جنوب لبنان، وفى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات حذا شباب الأتراك الإسلاميون حذوهم، وكما أن القضية الفلسطينية طغت على السياسات العربية وحددت المواقف السياسية العربية لعدة قرون؛ فقد أصبحت فلسطين أيضًا القضية المشتركة بين العرب والأتراك على الرغم من أن الأتراك كانوا قلة آنذاك.

وقد تشكلت رؤية العرب لتركيا في ذلك الوقت من خلال التطورات السياسية في تركيا نفسها، وقد استحوذ اثنان من السياسيين الأتراك على اهتمام العرب بشكل لم يسبق له مثيل منذ عهد مصطفى كمال، وهما بولنت أجاويد ونجم الدين أربكان، فكانت سياسة أجاويد الاشتراكية الديمقراطية[١٨] وآراؤه الناقدة للنظام العالمي ومحاولته الملموسة لخلق علاقات قوية مع جيران تركيا من العرب؛ كل هذا كان له أثر ايجابي على قسم كبير من الرأي العام العربي و خاصة اليساريين منهم، لكن منذ أن أصبحت التكتلات العربية ذات وجهة إسلامية في فترة السبعينيات والثمانينيات؛ نال نجم الدين أربكان النصيب الأكبر من حبهم و تقديرهم[١٩] فلم تكن إشارة أربكان للإنجازات العثمانية الضخمة للتذكير بأقوى الروابط التاريخية بين العرب والأتراك فقط، وإنما كانت أيضًا محاولة لرد الاعتبار للماضي العثماني في الفكر العربي المتراكم، ولا يقل أهمية أيضًا عن ذلك تعهد أربكان بمساندة القضية الفلسطينية، حيث عبر عن ذلك في كل الأحزاب التي أنشأها منذ بداية السبعينيات.

> عند السقوط المفاجئ للخلافة العثمانية لم يتبق سوى القليل جدًّا ليربط العرب بتركيا الحديثة، ومن ناحية أخرى، لم تكن الجمهورية التركية أيضًا ترغب في إحياء الروابط القديمة مع العالم العربي

في عام ١٩٧٤م لاقت أخبار نزول الجيش التركي على السواحل القبرصية الشمالية[٢٠] لحماية الشعب التركي هناك استحسانا وحماسا كبيرين في الأوساط العربية الإسلامية، وكان القليل جدًّا في شوارع القاهرة مستعدين للاستماع إلى التقارير التي تحدثت عن مشاركة أمريكا في الخطوة التركية، وعلى الرغم من أن أربكان كان مجرد عضو في الحكومة آنذاك، فإنه نال كل صلاحيات اتخاذ القرار بشأن قبرص، واحتج متظاهرو حزب الخلاص الوطني ضد قرار ضم إسرائيل للقدس في مدينة قونيا التركية قبيل الانقلاب العسكري في عام ١٩٨٠م، وهو ما ألهب الشارع العربي، ورفع من مكانة الإسلاميين الأتراك في نفوس العرب، وقد قوبل التدخل التالي للجيش التركي في الشئون السياسية بالإدانة من قبل قسم كبير من المجتمع العربي، وخاصة من قبل الإسلاميين العرب الذين نظروا إلى الانقلاب العسكري على أنه عمل معاد للإسلام ليس في تركيا فقط، ولكن في المنطقة برمتها، بينما شعر آخرون من العرب أن خطوة الجيش هذه كانت خطوة اضطرارية لأن مستوى العنف السياسي في المدن التركية قد وصل إلى حد يهدد كيان الدولة[٢١]، لذلك فإن اختلاف ردود الأفعال حول الموقف التركي ليس يشير فقط إلى الانقسام الداخلي بين العرب، وإنما يشير أيضًا إلى التطور الكبير في الوعي العربي تجاه تركيا الحديثة.

فمنذ عام١٩٨٠م أصبح المجتمع العربي أكثر وعيا بالشئون التركية؛ حيث أبدت الدول العربية اهتماما كبيرا بالاتجاه الذي سلكته تركيا، وكان السبب الأول وراء هذا التطور هو اندلاع الثورة الإسلامية في إيران، وعلى الرغم من تأييد الشعوب العربية لها، وازدياد اهتمام العرب بجيرانهم من غير العرب؛ فإن العديد من الأنظمة العربية قد قابلت هذا التغير في إيران بالعداء الشديد، وكان اندلاع الحرب بين العراق وإيران في عام ١٩٨٠م قد أغرق تركيا في توابعها؛ حيث إن الثورة الإيرانية قد شجعت على انفجار العصيان الكردي المسلح في في شمال العراق وشرق تركيا في آن واحد، والسبب الثاني للاهتمام العربي بتركيا هو أنه أصبح من الواضح خلال الثمانينيات أن انفتاح تركيا على جيرانها العرب قد تحول إلى سياسة قومية، وقد استمرت كل الحكومات التركية في اتباع ذلك النهج بمستويات متفاوتة.

ثالثًا: في الوقت الذي بدأت فيه الجامعات التركية تجذب الآلاف من الطلاب العرب؛ تزايد عدد زملائهم الأتراك المتجهين إلى الجامعات المصرية والسورية والأردنية، وفى نفس الوقت ازدادت أعداد المسافرين لأغراض السياحة والعمل والتجارة بين تركيا والدول العربية بشكل ملحوظ، وقد كانت الثمانينيات أيضًا هي الفترة التي شهدت تزايد تضامن الشعب التركي مع الشعب الفلسطيني، بتشجيع من الأحزاب الإسلامية واليسارية على حد سواء.

وأخيرًا، فقد ساعد التطور السريع في وسائل الاتصال على التغلب على العوائق الجغرافية واللغوية، ونقل الأوضاع السياسية التركية للمناقشة داخل البيوت العربية.

وشهدت فترة الثمانينيات أيضًا اهتمام القادة العرب والطبقة المثقفة بسياسة تورجوت أوزال التي تهدف إلى تدعيم وتعزيز العلاقات مع الدول العربية، وكذلك اهتموا بالبرنامج الاقتصادي لحكومته[٢٢]، بالإضافة إلى توسع دور وسائل الإعلام، مع ضعف سيطرة الدولة عليها وعلى الأشكال الأخرى من المنظمات المدنية، وكلما طرح مفهوم الدولة للمناقشة في ساحات الحورات العربية، كانت تجربة أوزال التركية حاضرة للاستفادة منها، أما من المنظور الاقتصادي؛ فكان انهيار الاقتصاد التركي في أواخر التسعينيات، وانهيار الاقتصاد في الأرجنتين وجنوب آسيا قد أدى إلى التشكيك في قدرة السياسات النيوليبرالية الجديدة[٢٤]، لكن ما ترك أثرا كبيرا على تفكير العرب بشأن الموقف التركي، هو التعافي السريع للجمهورية التركية، ويتجلى ذلك في عزل حكومة أربكان الائتلافية بعد فترة قصيرة من تشكيلها، ثم جاء تولي أربكان للسلطة في ١٩٩٦م، بعد سنوات قليلة من إسقاط الديموقراطية الجزائرية الوليدة على يد الجيش، وما أعقبة من اندلاع الحرب الأهلية الجزائرية، فقد كان وصول الإسلامي الشهير أربكان في هذا التوقيت لأعلى سلطة

في تركيا، قد دعم مفهوم أن هزيمة القوى الديموقراطية الإسلامية الجزائرية لم تكن هزيمة عالمية، على الرغم من أن التفاؤل الذي أسفرت عنه التطورات التركية لم يستمر كثيرًا.

وقد استحوذ أربكان على اهتمام المجتمع العربي لنجاحه في النهوض بالوضع الاقتصادي لتركيا، بالإضافة إلى إعلانه سياسة تهدف إلى تدعيم الروابط مع العرب والعالم الإسلامي، وقد بدا أربكان وكأنه سلطان آخر القرن العشرين؛ حيث قوبل مشروعه (مجموعة الدول الإسلامية الثمانية) بترحيب كبير من كثير من العرب، بينما اعتبره آخرون غير واقعي[٢٥]، وكان من الواضح أن الدول العربية الكبرى -وخاصة مصر والسعودية- لم يشعروا بالراحة تجاه جهود أربكان الرامية إلى جعل تركيا قوة رائدة في المنطقة، ووضع أجندة مستقبلية للشرق الأوسط المسلم، وبالطبع سرعان ما اضطر أربكان تحت ضغط الجيش إلى تقديم استقالته في عام ١٩٩٧م، فأحبطت الإقالة الإجبارية للقائد الإسلامي التركي الآمال العربية في التغيير السلمي الديموقراطي، ودعمت حجة هؤلاء الداعين إلى تبني مفهوم القوة ضد الطبقات الحاكمة المحصنة ومؤيديهم الغربيين.

ظهور حزب العدالة والتنمية

تزامن بزوغ فجر القرن الجديد مع هجمات الحادي عشر من سبتمبر على واشنطن ونيويورك، مما زاد من التوتر القائم بالفعل بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي، وبينما أصبح الإسلام والمسلمين في العالم كله في دائرة الشك؛ أعلنت الولايات المتحدة الحرب على أفغانستان، وبدأت في الإعداد لحرب أخرى ضد العراق، وأعطت الضوء الأخضر لإسرائيل بسحق الانتفاضة الفلسطينية الثانية، لذلك في عالم الحرب والإرهاب والدين؛ كانت رؤية حزب العدالة والتنمية بمنزلة بداية جديدة في الجدل القائم حول الإسلام والدولة الحديثة، وكيفية أن تكون مسلما في العالم الحديث.

لقد انبهر العرب مثلما انبهر كثيرون في العالم، بنجاح حزب العدالة والتنمية في الانتخابات البرلمانية لعام ٢٠٠٢م[٢٦]، فقد كانت النظريات مختلفة ومتناقضة حول صعود نجم حزب العدالة والتنمية، بدايًة من القول بأنه رؤية أمريكية للإسلام، إلى أنه حزب إسلامي سياسي انغمس في الخطب الديموقراطية العلمانية، وكان ذلك على الرغم من أن كل جوانب الجدل السياسي العربي بدأت تدريجيًا تدرك بأن المنطقة بأكملها -وليس تركيا بمفردها- قد دخلت مرحلة جديدة، وبأشكال مختلفة تمامًا من السياسات المختلفة.

ولم يكن مؤسسي حزب العدالة والتنمية شخصيات مجهولة، فلهم جذور قوية تعود إلى حزب الرفاه الإسلامي، و لذلك كان التحدي الذي أعلنه حزب العدالة و التنمية بالنسبة للعرب

المسلمين هو كيف يمكن التوفيق بين العبادة الإسلامية الفردية واتباع حزب العدالة والتنمية للنظام العلماني كنظام للدولة، وهل برنامج الحزب يعرض تحولا فعليا في رؤية رئيس الحزب للوضع التركي، أم أنه تحول وقتي للوصول إلى السلطة، وإذا كان الإجابة هي الاختيار الأخير؛ إذن ما الذي قاد تركيا الحديثة إلى مثل هذا التحول؟ بالنسبة لغير الإسلاميين، كان التحدي أكبر؛ حيث إن ظهور حزب العدالة والتنمية يبدو كإشارة على التقدم الكبير في صناعة الإسلام السياسي والتحول الجوهري في المجتمع التركي نفسه، الشيء الذي لم يستطع الجانبان رؤيته في المراحل الأولية، والذي كان محل نقاش واسع في الأوساط العربية حول تركيا وحزب العدالة والتنمية هو الانقسامات الداخلية، وهل سيستطيع حزب العدالة والتنمية الحصول على الإجماع التركي في بداية القرن الحادي والعشرين، أو لا.

قد لاقى الدور الذي قام به مصطفى كمال أتاتورك في تأسيس الجمهورية التركية على أنقاض الدولة العثمانية ووضع قواعد أنظمة وآليات دولته استحسان القادة العرب في فترة ما بين الحربين العالميتين

إن ما زاد اهتمام العرب بتركيا بعد انتخابات عام ٢٠٠٢م لم يكن فقط الإنجاز السياسي غير المتوقع الذي حققه حزب العدالة والتنمية، بل الاهتمام الذي لم يسبق له مثيل، والذي أبدته تركيا تجاه شئون جيرانها العرب بدرجة غير مسبوقة منذ نشأة الجمهورية التركية[٢٧]، كما ازدادت أيضًا العلاقات الاستثمارية والتجارية بين تركيا والدول العربية إلى مستويات غير مسبوقة، وكلاهما كان نتيجة للاتفاقات الرسمية أو المبادرات الخاصة، فقد كانت تركيا عضوا نشطا في الاجتماعات المنتظمة لدول الجوار العراقي، وكذلك شاركت القوات التركية القوات المتعددة الجنسيات في حفظ الأمن في جنوب لبنان، والتي تم تشكيلها بعد حرب عام ٢٠٠٦م، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تقف فيها القوات التركية على الأراضي العربية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وإن كان تحت مظلة الأمم المتحدة[٢٨]، كما شهدت أنقرة والعواصم العربية زيارات متبادلة بين القادة العرب والأتراك، وعلاوة على ذلك اتخذت العلاقات التركية السورية المضطربة منحى مذهلا[٢٩]؛ حيث تم تدشين منطقة للتجارة الحرة بين البلدين، وتم تكليف تركيا بالقيام بدور فاعل وقوي في المفاوضات السورية الإسرائيلية، وعلى الرغم من التقدم السريع في التفاعل بين تركيا (حكومة حزب العدالة والتنمية) والمنطقة العربية، فإن هذه العلاقات لم تكن خالية من التعقيدات.

وكانت إحدى أهم القضايا التي كان على حزب العدالة والتنمية التعامل معها؛ هي اقتراب الحرب الأمريكية على العراق، ففي ليلة الغزو رفض البرلمان التركي الموافقة على المطالب الأمريكية للعبور من تركيا إلى شمال العراق، فلم تكن الحرب على العراق مرغوبة أبدًا في تركيا، فعلى الرغم من أن تصويت أعضاء حزب العدالة والتنمية في المجلس الوطني لم يعبر عن رغبة حكومتهم؛ فإن القرار ترك أثرا قويا على الرأي العام العربي، وقد عبرت حكومة رجب طيب أردوغان في أكثر من مناسبة عن استيائها من السياسات والقوات الأمريكية في العراق، مما أكد استقلال تركيا عن السياسات الأمريكية في المنطقة، فعلى الرغم من تركيا أصبحت أكثر انغماسًا في الشئون العراقية كما تُوقع لها أن تكون على أية حال من الأحوال؛ فإن نهج حزب العدالة والتنمية تجاه العراق المحتل لم يكن دائما متسقا أو مؤثرا بشكل قوي[٣٠].

وبعد الاحتلال الأمريكي للعراق بفترة قليلة، أصبحت تركيا خط الدعم الرئيس للقوات الأمريكية في شمال العراق، وذلك دون الرجوع للبرلمان التركي، فقد كانت تركيا (حزب العدالة والتنمية) مثل كل الدول العربية التي لم تكن تتحمل رؤية التوابع العنيفة الناتجة عن الأسس الطائفية والعرقية التي يؤسس عليها العراق الحديث، وعندما تدهور الوضع الأمني في العراق دعت واشنطن تركيا لإرسال فرق الجيش إلى مناطق السيطرة السنية، وقبلت أنقرة الدعوة، مما أدى إلى معارضة قوية من كل الأحزاب العراقية، وكان لكل فريق أسبابه الخاصة[٣١]، وقد كانت تركيا على دراية بتأييد أمريكا للأحزاب الوطنية الكردية واستقلال الأكراد عن بغداد، لكن كان من الواضح أن أنقرة لم تكن واثقة مما يجب عليها القيام به لوقف تدهور الأوضاع في شمال العراق، حتى بعد أن أصبحت منطقة الحدود مكانا آمنا لأعضاء حزب العمال الكردستاني، فقد أسهم الضغط التركي في تأجيل الاستفتاء المثير للجدل حول مستقبل كركوك، ووافقت السلطات الأمريكية والحكومة العراقية على التدخل العسكري التركي ضد حزب العمال الكردستاني، وقد أعدت حكومة حزب العدالة والتنمية الإجراءات اللازمة لمواجهة هذه التطورات، وذلك من خلال زيارة أردوغان للبيت الأبيض، ومن خلال الاعتراف السياسي الكامل بحكومة المالكي، فقد تم استقبال رئيس الوزراء العراقي في زيارات رفيعة المستوى لأنقرة.

كما كانت كل الإشارات التي أرسلتها تركيا من خلال مواقفها تجاه الشأن العراقي تنعكس في سياسة حزب العدالة والتنمية تجاه القضية الفلسطينية، وقد عبر كل المتحدثين الأتراك ورئيس الوزراء أيضًا في كل المناسبات عن احتجاجهم على المعاملة الإسرائيلية المتوحشة للفلسطينيين، وعلى الرغم من أن أردوغان قام عام ٢٠٠٥م بزيارة نادرة كرئيس وزراء تركيا إلى إسرائيل والتقى

مع أريل شارون؛ فإنه عقب ذلك قام بزيارة ودية إلى السلطات الفلسطينية في رام الله للحفاظ على التوازن، وأوضح خلال زيارته أن العلاقات التركية الفلسطينية علاقات تاريخية، وبعد أشهر قليلة ساعدت حكومة حزب العدالة في تنظيم لقاء غير مسبوق بين القادة الباكستانيين والإسرائيليين، وكان هذا الدور لا يقل في إثارته للجدل عن زيارة أردوغان لإسرائيل[٣٢]، إلا أن حكومة حزب العدالة حافظت على بقائها بعيدة بمسافة كافية عن حكومة حماس، وذلك لتجنب ردود الأفعال الأمريكية والإسرائيلية، وظل الأمر كذلك حتى قبل حدوث الانقسام بين غزة ورام الله في عام ٢٠٠٧م، فعندما قدم خالد مشعل قائد حركة حماس إلى أنقرة في فبراير ٢٠٠٦م؛ لم يستقبله أردوغان، لكن استقبله عبد الله جول وزير الخارجية آنذاك، وتم عقد اللقاء في مقر حزب العدالة والتنمية، وليس في وزارة الخارجية التركية [٣٣].

قد استحوذ اثنان من السياسيين الأتراك على اهتمام العرب بشكل لم يسبق له مثيل منذ عهد مصطفى كمال، وهما بولنت أجاويد ونجم الدين أربكان

وبالإضافة إلى قنوات التعاون العسكري والاقتصادي؛ فإن ما تحدث عن سياسة أردوغان تجاه إسرائيل هو دور اللوبي الأمريكي الموالي لإسرائيل في مواجهة الادعاءات الخاصة بإبادة الأرمن، والرغبة في تأمين دور الوساطة التركية في القضية الفلسطينية، وفي أثناء زيارة أردوغان إلى إسرائيل اقترح علانية أن يقوم بدور مماثل، لكن شارون تجاهل ذلك العرض، وفى نوفمبر من عام ٢٠٠٧م، استضاف عبد الله جول الرئيس التركي الحالي، في أنقرة لقاء بين الرئيس الفلسطيني محمود عباس والرئيس الإسرائيلي شيمون بيريز، وبما أن الاجتماعات بين الاثنين لم تكن غريبة، ولم يكن لشيمون بيريز الصلاحيات الدستورية الكافية للتأثير على مستقبل التسوية الإسرائيلية الفلسطينية؛ فقد كانت اجتماعات أنقرة شكلية، ولأول مرة في تاريخ العلاقات التركية الإسرائيلية، انتهز شيمون بيريز الفرصة ليلقي خطبة في البرلمان التركي، وفى ٢٧نوفمبر من عام ٢٠٠٧م شاركت تركيا مع ٤٠ دولة أخرى في اجتماع أنابوليس الذي نظمته حكومة بوش لإعادة إطلاق المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، وقد أبرز حضور تركيا إصرارها على أن تكون عضوا فعالا في تطور عملية السلام في الشرق الأوسط، وطبقًا للصحافة التركية؛ فإن إسرائيل هي التي أصرت على الحضور التركي في المؤتمر[٣٤]، وأخيرًا استطاعت تركيا القيام بدور الوسيط في المفاوضات الإسرائيلية السورية المتوقفة منذ فترة طويلة، ولكن بعيدا عن المسار الفلسطيني.

وفى نوفمبر من عام م٢٠٠٧ قامت لجنة تركية بالتحقيق في ما تقوم به إسرائيل من أعمال حفر أسفل المسجد الأقصى، وقد وافق عليها أولمرت رئيس الوزراء الإسرائيلي خلال زيارته إلى أنقرة في شهر فبراير، ونشرت اللجنة تقريرها، وقد أسفرت التقارير عن أن الحفر الإسرائيلي غير مبرر على الإطلاق، كما أنه غير شرعي وغير علمي بالمرة[٣٥]، وعلى الرغم من أن نشر تقرير اللجنة كان حدثا غير ملحوظ، فإنه عكس رغبة أنقرة في عدم إعاقة التطور الملحوظ في العلاقات التركية الإسرائيلية، وقد أعلن أولمرت رئيس الوزراء الإسرائيلي خلال زيارته إلى العاصمة التركية أن مستوى التجارة بين البلدين قد وصل إلى ٨٣,٢ بليون دولار و أن هناك ١٥٢ شركة إسرائيلية تعمل في تركيا، وقد تكتمت حكومة حزب العدالة والتنمية، في شهر سبتمبر على شائعات تقول بأن الغارة الجوية الإسرائيلية على المعسكرات السورية بالقرب من دير الزور قد عبرت خلال المجال الجوى التركي، وفى أكتوبر وقع وزير الطاقة التركي على اتفاقية مع وزير البنية التحتية الإسرائيلي بهدف إنشاء خط بترول بين ميناء جيهان التركي و ميناء أشكلون الإسرائيلي،[٣٦] و يتضح من صالات المقاهي و الجامعات في المراكز العربية المتحضرة أنه لم يكن من السهل فهم الهدف الذي وراء سياسات حزب العدالة والتنمية، فكان العرب المثقفون ينظرون بإعجاب شديد إلى نمو الاقتصاد التركي في ظل حكومة أردوغان، و إلى أمانة وجدية رئيس الوزراء التركي، بالإضافة إلى التأثير التركي الكبير في المنطقة، ومع الإحياء المستمر للماضي المشترك في العقلية العربية، والتدخل المستمر للقوى العالمية في شئون المنطقة؛ كانت الأغلبية العظمى من العرب ترحب بالتدخل التركي المتزايد في الشرق الأوسط، على أمل أن شئون المنطقة ستكون في أيدي أصحابها يومًا ما، وظل هؤلاء العرب أنفسهم يتوقعون أن تكون تركيا أكثر عملاً بالمبادئ، وأقل فاعلية وخاصة في القضية الفلسطينية.

> كان العرب يشكلون ثلث الجيش العثماني الذي تكون من ثلاثين ألف جندي وقت الحرب، كما شكل العرب ثلثي جنود الفرقة التاسعة عشرة، التي قادها مصطفى كمال أتاتورك في أثناء الدفاع المظفر عن شبه جزيرة غاليوبولي

وقد أدرك العرب بشكل كبير أن حزب العدالة والتنمية هو حزب علماني محافظ، تقوده عناصر ذات مرجعية إسلامية، وبعد مرور ست سنوات من تولى الحزب السلطة في تركيا، ما زال

القليل من العرب -وليس العرب العلمانيين فقط- ينظرون إلى حزب العدالة والتنمية على أنه حزب إسلامي سياسي، وبالنظر إلى الأزمة الناتجة عن ترشح عبد الله جول للرئاسة في عام ٢٠٠٧م، ودعوة المحكمة الدستورية العليا لإغلاق حزب العدالة والتنمية في عام ٢٠٠٨م، كل هذا جعل العرب يعتقدون أن الصراعات السياسية في تركيا؛ كان أساسها السلطة وليس الإسلام، ولم يستطع العرب تصور حزب العدالة والتنمية على أنه بعيد عن الجدل الإسلامي، وذلك على الأقل بسبب الانقسامات التركية المتكررة حول حزب العدالة والتنمية، وحقيقة توجهاته[٣٧]، ولربما يرى المرء أن اهتمام العرب بحزب العدالة والتنمية هو انعكاس لمشكلاتهم الداخلية، إذا لم يكن أكثر من اهتمامهم بالدولة الإسلامية المتاخمة لهم، وكما يبدو أن الصدام بين الإسلاميين العرب والطبقات الحاكمة في العديد من الدول العربية قد وصل إلى طريق مسدود؛ فإن العديد من العرب أصبحوا راغبين في معرفة الأسلوب الذي استخدمه حزب العدالة والتنمية في إعادة هيكلة الجمهورية، أو العكس[٣٨]، وعلى الرغم من الاختلافات الكبيرة التي ميزت التجربة السياسية التركية الحديثة عن غيرها من تجارب الدول العربية؛ فإن هناك شعورا داخليا وكأنه أحد أسرار الطبيعة، وهو أن مصير مشروع حزب العدالة والتنمية متعلق بطريقة ما بمصير خلافات العرب الداخلية حول وضع الإسلام في العالم.

لأسباب واضحة تشارك الحكومات العربية شعوبها في الاهتمام بمتابعة الساحة السياسية التركية وتحولاتها، وذلك على الرغم من أن مواقف الحكومات العربية تجاه القوى المتصارعة في تركيا غير واضحة، وعلى الرغم من أن الآراء الرسمية للعرب عن تركيا (حكومة حزب العدالة والتنمية) ناتجة عن أكثر من عامل رئيس، فأولا: إن الهدف المهم في علاقات العواصم العربية الرئيسة مع حكومة أردوغان هو إيجاد حل للقضية العراقية، ورغبة كل الأطراف في منع تدهور الأوضاع في العراق، والسبب الثاني متعلق بالتغير السريع في خريطة القوى في المنطقة، ويتمثل ذلك في الدور الإيراني القوي، والتهديدات بإعلان الحرب بسبب سعى إيران لامتلاك السلاح النووي[٣٩]، والسبب الثالث، يتعلق بالتدخل التركي، غير المقصود في النزاع العربي، من خلال مساعدة سوريا على كسر الحصار الذي فرضته عليها واشنطن و باريس والرياض والقاهرة، و مع كل ذلك يبدو أن الموقف الرسمي للعرب تجاه التدخل النشط لحزب العدالة والتنمية في الشئون العربية الإسلامية، قد انقسم بين الحنين لتركيا الرفيق القديم، والقلق من تركيا القوة الإقليمية الصاعدة، في فترة أصبح فيها الشرق الأوسط مسرحا مليئا بالقوى المتصارعة.

الخاتمة

واصلت الجمهورية التركية التغيير خلال الخمسة والثمانين عاما الماضية من تاريخها، ربما بشكل أكثر مما يستطيع حكام الجمهورية أنفسهم الاعتراف به، وقد تغير العرب أيضًا شعوبًا وحكومات، وإذا كان من السذاجة الزعم بأن الكيانات العثمانية الأخيرة كانت بمنزلة تمزيق للإرث العثماني؛ فإنه من الخطأ أيضا الزعم بأن عملية التغيير التي شهدتها تركيا والدول العربية سوف تؤدى إلى تحول سريع في العلاقات بين العرب والأتراك، والذي هو مؤكد أن فكرة القومية أو ظهور الدولة القومية لم يمكنها قطع هذه العلاقات حتى في الفترة العصيبة ما بين الحربين العالميتين، فلم يعد أبناء الجمهورية التركية بمقدورهم قراءة نصوص أجدادهم العثمانية المكتوبة بالحروف العربية، باستثناء النصوص العربية الدينية، كذلك لم تعد اللغة التركية مستخدمة في المدن الحديثة في القاهرة ودمشق وبغداد، كما كانت في العقود الأولى من القرن العشرين، أما في العشرين عاما الماضية فقد بدأ العرب والأتراك في استكشاف بعضهم البعض، متحفزين بالعوامل الاقتصادية والأهداف السياسية والفضول الثقافي، بالإضافة إلى الحنين التاريخي.

> كان التحدي الذي أعلنه حزب العدالة والتنمية بالنسبة للعرب المسلمين هو كيف يمكن التوفيق بين العبادة الإسلامية الفردية واتباع حزب العدالة والتنمية للنظام العلماني كنظام للدولة.

وبالنسبة للمستقبل المتوقع؛ فإن تركيا -بغض النظر عن الحزب الحاكم في أنقرة- ستستمر في نهجها كدولة قومية، أما السعودية وسوريا ومصر فستستمر في الاهتمام بمصالحها القومية، بنفس الطريقة التي سلكتها كل منها منذ أن أصبحت دولا ذات كيان مستقل، ناهيك عن أن مشروع الوحدة العربية لم يحقق أي تقدم ملموس، بينما يبدو التلاحم الوطني التركي بشكل لم يسبق له مثيل منذ تأسيس الجمهورية، عموما فإن كلا من العرب والأتراك قد تعرقلوا في عقبة فقدان الوعي الاجتماعي السياسي، والذي تفاقم بسبب كل أشكال التدخل الأجنبي فيما بينهم وفى شئون المنطقة، ومما لا شك فيه أن العلاقات القوية القائمة على وعي كل طرف بمتطلبات الطرف الآخر واهتماماته؛ يمكن أن تكون ذات نفع كبير لكل الشعوب العربية الإسلامية في الشرق الأوسط؛ حيث يُتاح تبادل الخبرات، وترتفع فرص الحصول على الحد الأقصى من المكاسب القومية، فخلال فترة قصيرة من فتح الحدود التركية السورية وتعزيز العلاقات بين البلدين، حدث انتعاش اقتصادي في كل من الجانبين، وتغيرت الطريقة التي كان ينظر بها كل من الأتراك والعرب السوريين لبعضهما.

إن التحديات التي يواجهها العرب والأتراك الآن تدور حول: كيف يمكن خلق فضاء عثماني للقوميات بدلا من الإمبراطورية؟ كيف يمكنهم أن يستفيدوا من التراث المشترك، بدلا من أن يكون عبأ عليهم؟ كيف يمكنهم التعامل مع الماضي كموضوع دراسة بحثية، بدلا من أن يكونوا سجناء لمشاعرهم السلبية؟ وكيف يمكنهم تصور أن تحقيق الرخاء القومي لن يتحقق بمعزل عن رفاهية ورخاء المنطقة ككل، وليس كمشروع قومي صغير.

إذا تم التغلب على المعوقات الواقعية والتخيلية بين تركيا والدول العربية؛ فإن الروابط التركية الإسرائيلية على الرغم من ذلك؛ ستلقي بظلالها علي رؤية الشعوب لتركيا، وعلى الرغم من أن عمليات السلام في الشرق الأوسط وأن توقيع إسرائيل على معاهدات سلام مع مصر من ناحية ومع الأردن من ناحية أخرى قد خفف من حدة العلاقات التركية الإسرائيلية القديمة فإنه يجب ألا يستخف أحد بالدور الذي تلعبه القضية الفلسطينية في تحديد وجهة نظر الشعوب العربية السياسية.

الهوامش

١- جورج أنطونيوس، الصحوة العربية (لندن:هامش هاملتون، ١٩٣٨)، ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، الطبعة الثانية (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠)، ظهور فكرة القومية (بيروت: دار الاتحاد، ١٩٥٦)، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٥-١٩٣٦)، سليمان موسى، الحركة العربية: المرحلة الأولى (بيروت: دار النهار، ١٩٧٠).

٢- زين نور الدين زين، النضال لنيل استقلال العرب (بيروت: خياط، ١٩٦٠)، وظهر في نسخته العربية، دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية (بيروت: دار النهار، ١٩٧١).

٣- انظر على سبيل المثال: أرنست داون، من العثمانية إلى العروبة، مقالات في أصول القومية العربية (أوربانا، طباعة جامعة الينوي، ١٩٧٣)، رشيد خالدي، السياسة البريطانية تجاه سوريا وفلسطين، ١٩٠٦-١٩١٤(أكسفورد، طباعة أثاكا،١٩٨٠)، رشيد خالدي، أندرسون، مصلح، سيمين، أصول القومية العربية (نيويورك: طباعة جامعة كولمبيا، ١٩٩١)، حسن قايلي، العرب والأتراك الجدد (بيركلي: طباعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٧)، بشير نافع، العروبة والإسلام والقضية الفلسطينية، ١٩٠٨-١٩١٤(قراءة: طباعة أثاكا، ١٩٩٨).

٤- اليزر توبار، الحركات العربية في الحرب العالمية الأولى (لندن: فرانك كاس، ١٩٩٣)، ص٥٩.

٥- انظر نيللي حنا، صناعة الثروة في ١٦٠٠: حياة وأوقات إسماعيل أبو طاقية، التاجر المصري (سيراكيوز: طباعة جامعة سيراكيوز،١٩٩٧)، بيتر جران، الجذور الإسلامية للرأسمالية (طباعة اسطن ، جامعة تكساس، ١٩٧٣).

٦- توبار، الحركات العربية، ص١٠٢،١٢١.

٧- إلي قيدور، إنجلترا والشرق الأوسط، سقوط الدولة العثمانية، ١٩١٤-١٩٢١(لندن، طباعة مانسيل،١٩٨٧)، ص١٧٠،١٧٢، وأميد نازمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية في العراق (بيروت: مركز دراسة الوحدة العربية، ١٩٨٤) ص١٦٠، ص ١٨٨-١٩١، موسى، الحركة العربية، ص٥٣١-٥٣٢، ص٥٥٣-٥٥٤،

٨- نافع، العروبة والإسلام والقضية الفلسطينية، ١٩٠٨-١٩١٤، ص٩٥-٩٦، (حنا بطاطو)، طبقات المجتمع القديمة والحركات الثورية في العراق(طباعة جامعة بيرنسون ١٩٧٨)، ص ١٩٨-٢٢١، ١١٤٠، يعقوب لاندو، السياسات الإسلامية (أكسفورد: طباعة كلارينـدون، ١٩٩٠) ص١٩٧-١٩٨.

٩- محمد رشيد رضا، الخلافة أو الإمامة العظمى (القاهرة: مطبعة المنار،١٣٤١هجريا)، مكتوب في ليلة إلغاء الخلافة، كان رضا قد استجاب بالفعل لمناقشات أنقرة حول مستقبل تركيا وعلاقاتها مع باقي العالم الإسلامي، فعلى الرغم من اقتناعه بأهمية الخلافة، فإن رؤيته كانت متمدنة جدًّا، واقترح الفصل بين السلطة المؤقتة والخلافة.

١٠- نافع، العروبة والإسلام والقضية الفلسطينية، ١٩٠٨- ١٩١٤، ص٩٧،انظر المنار،٢٥ (١٩٢٤)، ص٣٩٠-٤٠٠، لأجل الرؤية المعاصرة لاستجابات المسلمين لتولى الشريف حسين الخلافة.

١١- علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم (القاهرة: مطبعة مصر،١٩٢٥).

١٢- حميد عناية، الفكر السياسي الحديث (لندن: أكاديمية ماكميلان ،١٩٨٢)،ص٥٥-٥٦.

١٣- نافع، العروبة والإسلام والقضية الفلسطينية، ١٩٠٨-١٩٤١، ص٢١٣-٢١٤، ٢٢٢.

١٤- براين هولدن ريد، (الحافة الشمالية وحلف بغداد) جون يونج، السياسة الأجنبية في إدارة وقت السلم في الكنيسة، ١٩٥١-١٩٥٥(ليسستر، طباعة النشر الدولي، ١٩٩٨)، ص١٥٩-١٧٩ ، ريتشي أوفيندي، جذور الحروب العربية الإسرائيلية (لندن: لونجمان، ١٩٩٢)، ص١٥٧-١٥٩، ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية (كامبردج، طباعة بوكناب، ١٩٩١)، ص ٣٦٥-٣٧٢، من أجل مناقشة كاملة حول تأثير الحرب الباردة على الشرق الأوسط، ارجع إلى فواز جرجس، القوى العظمى والشرق الأوسط: السياسات الإقليمية والدولية، ١٩٥٥-١٩٦٧(بولدر، طباعة، ويست فيو، ١٩٩٤).

١٥- بيرنارد لويس، ظهور تركيا الحديثة (لندن: طباعة جامعة أكسفورد، ١٩٦١)، ص٣٠٧، ايزال كورال شو وستانفورد شو، تاريخ الدولة العثمانية وتركيا الحديثة: الجزء الثاني، الإصلاح والثورة والجمهورية (كامبردج: طباعة جامعة كامبردج، ١٩٧٧)، ص٤٢٩-٤٣٠.

١٦- على الرغم من العلاقات الودية مع الأردن فإن تركيا رفضت دعوة لحضور مؤتمر الدول الإسلامية لمناقشة القضية الفلسطينية المنعقد في عمان الذي قد اقترحته باكستان، أريا شمويلفيتس، (زيادة العلاقات التركية والهاشمية: الأردن وتركيا، ١٩٤٦-١٩٥٨)، أشر سوزر أريا شمويلفيتس، الهاشميون في العالم العربي الحديث (لندن _ فرانك كاس، ١٩٩٥)، ص١٩٨-٢٠٦، التهديدات التركية في ١٩٥٧، بدعم من الإدارة الأمريكية إلى حكومة القومية العربية السورية، قد شملت الحركة السورية للاتحاد مع الناصرية المصرية، ميشيل هيدسون، السياسات العربية (نيو هيفين: طباعة جامعة يلي، ١٩٩٧)، ص٢٥٩، جرجس، القوى العظمى، ص٨٥-٨٦، كانت الحكومات التركية في أوائل الستينيات من القرن العشرين قد اتبعت سياسة مندريس المضادة للقومية العربية،

عندما انحلت الوحدة المصرية السورية بالانقلاب العسكري، اعترفت الأردن وتركيا بسرعة بالنظام السوري المنفصل، مما أثار الشكوك حول نواياهم تجاه القادة السوريين، يزيد صايغ، الكفاح المسلح والبحث عن الدولة (أكسفورد: طباعة كلاريندون، ١٩٩٧)ص ٣٠-٣١.

١٧- كانت أنقرة قد أوقفت العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، على الرغم من أنها كانت قليلة.

١٨- قيدوري، السياسات في الشرق الأوسط (أكسفورد: طباعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٢) ص ١٢٨-١٢٩.

١٩- شريف ماردين، (الدين والسياسات في تركيا الحديثة) في جيمس بيسكاتوري، الإسلام في التطورات السياسية (نيويورك: طباعة جامعة كامبردج (لأجل المعهد الملكي للشئون الدولية)، ١٩٨٣)، ص١٣٨-١٥٩، فيروز أحمد، (توطيد الإسلام في تركيا)، ١٠إبريل ١٩٨٨، ص٧٥٠-٧٦٩.

٢٠- شو، التاريخ، ص ٤٣٠-٤٣١، قيدوري، السياسات، ص١٣٥.

٢١- الطبيعة المعقدة للحكم العسكري في السياسات التركية، تانل ديميريل (الجنود والمدنيون: أزمة الديموقراطية التركية)، دراسات الشرق الأوسط، ٤٠، ١(٢٠٠٤): ص١٢٧-١٥٠.

٢٢- البعد الإسلامي في الشكل الخارجي لسياسة تورجت أوزال وجهوده لتعزيز العلاقات مع الدول العربية، انظر ألان تايلور: قضية الإسلام في سياسات الشرق الأوسط، (بولدر: طباعة وست فيو، ١٩٨٨) ص ٩١-٩٢، من أجل سياسته الاقتصادية المتحررة، انظر: داني روديك، التحررية السابقة لآوانها والاستقرار غير المكتمل: عهد تورجت أوزال في تركيا (لندن: مركز البحث الاقتصادي والسياسي، ١٩٩٠).

٢٣- انظر على سبيل المثال: نزيه الأيوبي، المزايدة في الدولة العربية (لندن، تاورس، ١٩٩٥).

٢٤-ديفيد هارفري: تاريخ موجز عن الليبرالية الجديدة (نيويورك: طباعة جامعة أكسفورد، ٢٠٠٥).

٢٥-لأجل الفترة القصيرة لأربكان كرئيس وزراء، انظر أريا شمويلفيتس، التجربة التركية في الحكومة الإسلامية، ١٩٩٦-١٩٩٧(تل أبيب: جامعة تل أبيب، مركز موشيه ديان، ١٩٩٩): ضيا أونيش، (الاقتصاد السياسي لنشأة الإسلام في تركيا: ظهور حزب الرفاه على الساحة)، (١٩٩٧): ص٧٤٣-٧٦٦، حاقان ياوز، (الإسلام السياسي وحزب الرفاه في تركيا)، السياسات المقارنة، (١٩٩٧): ص٦٣-٨٢.

٢٦- من أجل المحيط الذي ظهر فيه حزب العدالة والتنمية في السلطة، انظر: يلديز أتاصوي، تركيا، الإسلاميون والديموقراطية: التحول والعولمة في دولة إسلامية (لندن تاورس، ٢٠٠٥).

٢٧- بولنت أراس، (تركيا فيما بين إسرائيل وسوريا: ظهور القوة الناعمة التركية)، ستا، الملخص السياسي، رقم ١٥مايو ٢٠٠٨، مليحة بانلي آلتون إيشيك، (إمكانيات وحدود القوة الناعمة التركية في الشرق الأوسط)، نظرة تركيا،٢٠١٠، (٢٠٠٨): ص٤١-٤٥، طوال عام ٢٠٠٢ الذي في نهايته أنشأ حزب العدالة والتنمية أول حكومة له، كانت (الحياة) اليومية لكل العرب تتضمن ١٢٤قسما عن تركيا تغطى كل أقسام الأخبار، بالإضافة إلى كل التفسيرات والتحليلات، وبالمقارنة، خلال السبعة شهور الأولى من عام ٢٠٠٨، كانت الحياة تتضمن ٥٥٩ قسما.

٢٨- من أجل رؤية الحكومة التركية لمشاركتها في قوات الأمم المتحدة في جنوب لبنان، نظر: مقابلة غسان تشاربل مع رجب طيب أردوغان في الحياة ١٨ أكتوبر ٢٠٠٦، من أجل رؤية العرب للجدال التركي حول تورط تركيا في لبنان، انظر بشير نافع، (العدالة والتنمية يخرج تركيا من العزلة الأتاتوركية إلى العثمانية الجديدة) القدس العربي، سبتمبر، ٢٨، ٢٠٠٦.

٢٩- كانت العلاقات التركية السورية قد تعطلت لمدة عقود بسبب انضمام تركيا للنزاع حول إقليم الإسكندرونا السوري (إقليم هاتاي التركي) في أواخر الثلاثينيات من القرن ٢٠، وفى عام ١٩٩٨ كان التوتر بين البلدين قد وصل إلى مرحلة حرجة؛ حتى إن سوريا قامت بحماية قائد حزب العمال الكردستانى (عبد الله أوجلان).

٣٠- لأجل فعاليات السياسة التركية في العراق، وخاصة قبل الاحتلال الأمريكي وفى الفترة الأولى من الاحتلال، انظر: وليم هالي، تركيا، الولايات المتحدة والعراق (لندن:ساقي، ٢٠٠٧).

٣١- مولد كتيك، (تصديق الحكومة التركية لخطة نشر قوات حفظ السلام في العراق)، نظرة أوراسيا (أوروبا وآسيا)، ١٠يونيو ٢٠٠٣، Idem، (فاق الانتشار التركي في العراق الآن كل الشكوك)، نظرة أوراسيا، ٢١أبريل ٢٠٠٤، سوزان شاس، (النضال من أجل العراق: الحلفاء، بدأت تركيا تفكر مرة أخرى في إرسال قوات إلى العراق)، نيويورك تايمز، ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣.

٣٢- من أجل العلاقات المتبقية بين تركيا وفلسطين وتركيا وإسرائيل منذ ٢٠٠١ حتى ٢٠٠٥، انظر: بشير نافع، وصالح، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني، ٢٠٠٥ (بيروت، مركز الزيتونة للدراسات، ٢٠٠٦)، ص١١٦-١٢٠.

٣٣- من أجل الموقف التركي الحذر، انظر بيان عبد الله جول عن العلاقات مع الحكومة الفلسطينية، جريدة ميليت ، ٧ يوليو ٢٠٠٦، ولتفاصيل أكثر ، انظر: صالح، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني، ٢٠٠٦ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات، ٢٠٠٧)، ص١٧٨-١٨٤.

٣٤- جريدة (زمان) ١٥نوفمبر ٢٠٠٧.

٣٥-جريدة (زمان) ١٦نوفمبر٢٠٠٧.

٣٦-صالح، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني ، ٢٠٠٧ (بيروت، مركز الزيتونة للدراسات، ٢٠٠٨) ص٢٠٤-٢١٦.

٣٧- ميشل، حاقان ياوز، (التناقض التركي: الإسلاميون المتجهون إلى العلمنة الرجعية)، الدراسات النقدية للشرق الأوسط، ١٦، ٣ (عام ٢٠٠٧بأكمله) : ص٢٨٩-٣٠١.

٣٨-لأمثلة على الرؤى العربية المختلفة لحزب العدالة والتنمية، انظر: هاني محجوب (أردوغان، حزب العدالة والتنمية)، الموازين، ٣مارس ٢٠٠٦، بشير نافع، (تركيا: سير أيديولوجي، أم عظمة طبقة مهيمنة) الموازين، ٦يوليو ٢٠٠٧، هاني محجوب، (المشكلات الإسلامية لرجب طيب أردوغان)، الموازين، ١٣نوفمبر٢٠٠٧، أزاد أحمد على، (مخاطر نمط حياة تركيا علمانيا ثم إسلاميا) الحياة، ١٤سبتمبر٢٠٠٧، صلاح سالم، (الحجاب التركي: مأزق سياسي مفتعل لهوية حضارية ملهمة) الحياة ٢٧ إبريل ٢٠٠٨، صالح بشير، (المسار التركي كما لم تعرفه المنطقة العربية (الحياة ٢٢يونيو ٢٠٠٨، رضوان السيد، (اجتهاد الإسلام التركي ومشكلة الفهم) الحياة ٥ أغسطس ٢٠٠٨، عبد الله التركماني (القضاء على الفجوة الإسلامية التركية في العالم العربي) القدس العربي ،٢٣فبراير، ٢٠٠٦، صبحي الحديدي، (المأزق التركي المؤثر: حجاب زوجة أردوغان) القدس العربي، ٣يونيو ٢٠٠٧، عبد الوهاب أفندي (تركيا وخطر الاتجاه للمستقبل) القدس العربي ٢٥أكتوبر ،٢٠٠٧.

٣٩- من أجل نظرة العرب للمثلث العربي التركي الإيراني، في ضوء زيارة العاهل السعودي إلى أنقرة، انظر رضوان السيد (تركيا والعرب وتوازنات الشرق الأوسط الجديد) الشرق الأوسط، ٩ أغسطس٢٠٠٦.